وهذا ما استطاع المؤلف، بجدارة، ان يحققه لبحثه. غير انه حين «اضطر» الى ابداء الرأي والخروج باستنتاجات، كتب ببعض التعميم، فأطل رأيه من بين السطور «باستحياء وتحفظ». هذا هو الانطباع العام الذي تكوّن لدي، اثناء قراءتي لصفحات هذا البحث.

ثمة ملاحظات اخرى على هامش البحث، تتعلق ببعض ما ورد في سياق النص. ففي اشارته لكتيب ثيودور هرتسل «دولة اليهود» (ص ١٩)، اعطى المؤلف لهذا الكتيب عنوانا اخر هو «الدولة الصهيونية». ولا ندري ما الذي املى على الكاتب تغيير العنوان، هل هو السهو او «مبدأية طهرانية» قادت الكاتب الى صهينة العنوان.

الملاحظة الثانية وتتعلق ببعض المقتبسات الواردة في البحث. ففي الصفحة ٤٠ نقرأ التالي: فالمعروف ان «الهجرة الصهيونية تفاقمت بعد ان استلم النازيون، في كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٣٣، السلطة في المانيا، اذ تمكنت المنظمات الصهيونية من استغلال النازية ابشع استغلال» (١١١).

ما الذي يتميز به هذا المقتبس؟ هل هو الرأي، ام التفرد في المعلومات، ام هو التميز في الاسلوب من حيث الطرح؟ ان هذا المقتبس يفتقر إلى أي من هذه العناصر الثلاثة، رغم اهمية المرجع المأخوذ منه. الشيء نفسه يتعلق بالمقتبس رقم (١١٣) في الصفحة ذاتها، حيث احتوى على ارقام فقط، وكان بامكان الكاتب ان ينقلها عن مصدرها دون ايرادها كمقتطف.

الملاحظة الثالثة، وتتعلق بالمرجع الذي استند اليه الكاتب في تأكيده لعضوية الشيخ عز الدين القسام في حزب الاستقلال ــ فرع حيفا (ص ٥٠). فالكاتب لا يشير إلى المرجع الذي استقى منه معلومة هامة كهذه، فضلا عن ان البت بشأنها امر أشارت الى صعوبته مراجع عدة، من بينها اصدقاء ومعاصرون للقسّام.

الملاحظة الرابعة، وتتعلق بمآخذ الكاتب على الاستقلاليين (ص ٩٤)، والتي، في رأي الكاتب، ادت الى وصول الحزب الى مأزق مصيري. ففي المأخذ رقم (ج)، يوجه الكاتب انتقاده لاستعداء الاستقلاليين «للاطراف السياسية العائلية في الداخل»، اي للقيادات التقليدية. ويأخذ الكاتب على الحزب، تحديدا، عجزه عن كسب ود الحاج امين الحسيني، و «الذي كان وطنيا غير مغموز في وطنيته، وله وجهة نظر سياسية اقرب الى وجهة نظر الاستقلاليين منها للنشاشيبيين» (ص ٩٤). هنا لا يتعلق الأمر بنسبة قرب او بعد هذا الطرف او ذاك عن الاستقلاليين، بقدر ما يتعلق بمسألة بيّنها الكاتب نفسه، في موضع اخر من الكتاب (ص ٤٥)، وهي رفض الحاج امين التنسيق مع الحزب على قاعدة الاسس التي اشترطها الحزب للتعاون، والتي هي تغليب الوطنية على العشائرية، ومعاداة الانتداب البريطاني الخ... فعلى من يسجل المرء مأخذه في هذا الصدد، على من طرح الاسس الصحيحة للتحالف، ام على من رفض التعاون على قاعدة هذه الاسس؟! ثم ان الامر لا يتعلق، ايضا، بنوايا التقليديين، او بصدق وطنيتهم، بل ان الممارسة الفعلية هي المقياس الاساسي، والامور مرهونة بنتائجها على اي حال.

هذه هي الخطوط العريضة لمجمل ملاحظاتنا على هذا البحث، وهي، في كل حال، لا تبتعد عن الهدف الذي نذر المؤلف بحثه له، والذي اوضحه في تمهيد قال فيه: ان الهدف من هذه الدراسة هو «تسليط الضوء على الدور المتميز لحزب الاستقلال، وتحليل تجربته السياسية في الدفاع عن مصالح الشعب الفلسطيني، ضد كل من الحركة الصهيونية والانتداب البريطاني» (ص ١٠). والكاتب يتتبع، عبر صفحات كتابه هذا، الهدف بعناية وحذر، محاولا التزام التجرد ازاء ما يتقدم به من معلومات ووقائع. هذا الحذر وضع الكاتب الى حد اصبح معه الالتزام بالموضوعية، قيدا على التحليل والاسهاب فيه ــ كما سبق ان اشرنا ــ. ومن هنا، جاءت دراسة السيد سميح شبيب سردا ووصفا، اكثر منها تحليلا لتاريخ الحزب ونشاطه وانحساره، وذلك في خط مستقيم، اولى فيه الباحث الاحداث مهمة شرح ذاتها والتكلم عن نفسها، وليس هذا الرأي من قبيل التقليل من اهمية البحث، فاختيار الموضوع بحد ذاته، والتزام الكاتب بموضوعه، من حيث المضمون، وتقصيه لكل ما يتعلق بحزب الاستقلال، وجمعه لكل ذلك في كتابه هذا، يعتبر بحق، كما اشار الاستاذ اكرم زعيتر في المقدمة، «سفرا وثيقا يعتمد عليه ويرجع اليه».

لقد بذل الكاتب جهدا دؤوبا في جمع المعلومات